ISSN: 1994-4217 (Print) 2518-5586(online)

Journal of College of Education

Available online at: https://eduj.uowasit.edu.iq

Jumana Abdul Mahdi jasim

Wasit University – College of Education for Human science.

Email: jumana@uowasit.edu.iq

Keywords: ***linguistic consideration, justification of nouns, Imam al-Sadiq (peace be upon him), the origin of language.*** **Article info**

Article history:

Received 01.Febr.2023

Accepted 12.mar.2023

Published 29.May.2023

The linguistic thought of Imam Jaafar al-Sadiq (d. 148 A)

A B S T R A C T

In the name of the Almighty, Language is one of the aspects that Imams, jurists, and people of sects must be familiar with, so that they can analyse the Qur'anic and hadith texts, derive legal rulings, and transmit the teachings of the Islamic religion. So, I chose Imam Jaafar Al-Sadiq (peace be upon him) for stating the linguistic consideration of his epistemology, and I tried in this research to show his linguistic approach according to what we got from his heritage in this regard. The researcher divided the research into six axes. The first axis included the theory of the emergence of language in his epistemology, and the second included the linguistic consideration of his position on Arabic grammar. The third is in his rhetorical linguistic consideration, the fourth is his linguistic justification for the names, the fifth includes his phonetic linguistic consideration, and finally the sixth, in which the researcher demonstrated his knowledge of languages other than Arabic. It is worth noting that the opinions, sayings, and rulings of Imam al-Sadiq (peace be upon him) were disseminated in separate books, and the researcher has dopted them in this research.

.© 2022 EDUJ, College of Education for Human Science, Wasit University

DOI: https://doi.org/10.31185/eduj.Vol51.Iss1.3519

النظر اللغويّ في معرفيّة الإمام جعفر الصّادق (ت١٤٨هـ)

أ.م.د. جمانة عبد المهدي جاسم الوائليّ

جامعة واسط – كلية التربية للعلوم الإنسانية

الملخص:

تعدّ اللغة من الجوانب التي يجب الإلمام بها عند الأئمة، والفقهاء، وأهل المذاهب، فبها يتمكّنوا من تحليل النصوص القرآنيّة الكريمة، والحديثيّة الشريفة، ويستنبطوا الأحكام الشرعيّة، وينقلوا تعاليم الدين الإسلامي ، لذا اخترتُ الإمام جعفر الصادق(عليه السلام) (ت ١٤٨هـ) لبيان النظر اللغويّ في معرفيّته، وقد حاولت في هذا البحث أن أبيّن منهج الإمام

الصادق(عليه السلام) اللغويّ على وَفق ما وصلنا من تراثه في هذا الخصوص، وقد قسّمتُ البحث على ستة محاور، المحور الأول تضمّن نظريّة نشأة اللغة في معرفيّة الإمام جعفر الصادق (عليه السلام)، والمحور الثاني تضمّن النظر اللغويّ في موقفه من النحو العربيّ، والمحور الثالث خصصته في النظر اللغويّ البلاغيّ، أما المحور الرابع، فاختصّ بالجانب التعليليّ اللغويّ للمسميات، والمحور الخامس تضمّن نظره اللغويّ الصوتيّ ، وأخيرا المحور السادس، الذين بيّنت فيه معرفته باللغات الساميّة، وغيرها، ومما يجدر الإشارة إليه ان آراء الامام الصادق(عليه السلام) ، وأقواله، وأحكامه كانت مبثوثة في كتب متفرقة، وقد اعتمدتها في هذا البحث.

الكلمات المفتاحيّة: النظر اللغويّ ، تعليل المسميات ، الإمام الصادق (عليه السلام)، نشأة اللغة.

المقدَّمَة :

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، وأصلي على محمد عبده الأمين ورسوله الكريم، وعلى آله الطيّبين الطاهرين أطواد العلم الراسخة ،ومثاقيل الحِكم الراجحة ، وسلّم تسليماً.

وبعد، فقد تَرَكَ الإمام جعفر الصادق هديةً عظيمةً من كلامِه المبارك الفائق البيان ، الذي لا يُقاوم بيانه، ولا يُنزف بحره، ولا يُدرك غوره ولا يلحق شأوه ، إذ ذُلّلت له سُبُلُ البلاغة ، إذ كان كلامه بيّن المناهج ، دمث المباني ، كيف لا وهو من بيتٍ عُرفوا بالفصاحة والبيان ، فهم –كما قال الإمام علي (عليه السلام) – "إنّا لأمراء الكلام ، وفينا تنشّبت عُروقه ، وعلينا تهدّلت غُصُونُه (كلام الإمام علي، جمع الشريف الرضي، ٢٠٠٨م: ٤٤٨)؛ لذا قال الإمام علي بن الحسين (عليه السلام) "أعربوا حديثنا ؛ فأنّا قومٌ فُصحاء" (الكليني ،٢٠٠٢م، ٦٨/١).

وقد اشتملت كلمات أهل البيت(عليهم السلام) على شذرات، ولمحات مضيئة تشير إلى منهج واضح، وفكرٍ لغويّ ثاقب، ومتميّزٍ ولاسيما ما وردنا عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام)(ت١٤٨هـ) ، وتأتي أهمية هذا الفكر اللغويّ كون صاحبه ينتمي لعصر الاحتجاج اللغويّ الذي حُدّ بمنتصف القرن الثاني للهجرة (البغداديّ، ١٠٩٣هـ: ٣/ ٣٤٣).

وقد درسته على ستة محاور على وفق المنهج الوصفي التحليلي، والتي تضّمنت أبرز الجوانب اللغويّة في معرفيّة الإمام الصادق (عليه السلام).

المحور الأول – نظريّة نشأة اللغة في معرفيّة الإمام جعفر الصادق (عليه السلام):

لم ينل موضوع من الموضوعات المتعلّقة بظاهرة اللغة الإنسانيّة من الاهتمام الذي خلّفه انشغال العلماء وتفكيرهم بنظريّة أصل اللغة.

ولعلّ الجدل الذي أثير حول فكرة (التوقيف الإلهي) و(المواضعة والاصطلاح) يمثل الدائرتين الكبيرتين اللتين توزعت بينهما آراء العلماء والمتكلمين واللغويّين في تراثنا القديم.

وفي هذا الصدد تطوّرت نظريتان : ذهبت الأولى إلى أنَّ اللغة وحيٌ من الله ، والقائلون بهذا الرأي اعتمدوا على مستندين ،الأول: الدليل النقليّ ، والثاني الدليل العقليّ.

ففي الدليل النقليّ احتجوا أصحاب هذا الرأي بالمنقول من الآيات القرآنية من ذلك قوله تعإلى: } وعلم آدم الأسماء كلها{ (سورة البقرة، الآية:٣١).

أمّا الدليلّ العقليّ، فيتمركز بسؤال يطرحه الذهن حول كيف يتمكّن الإنسان من ارتجال كل هذه الأسماء، قال أحمد ابن فارس الرازي (ت٣٩٥هـ): "الدليل على صحته إجماع العلماء على الاحتجاج بلغة القوم فيما يختلفون فيه، أو يتفقون

عليه ثم احتجاجهم بأشعارهم ولو كانت اللغة مواضعة واصطلاحا لم يكن أولئك في الاحتجاج بهم بأولى في الاحتجاج بنا ولو اصطلحنا على لغة اليوم ولا فرق" (الرازيّ، أحمد بن فارس، ١٤٢٢هـ: ٨).

في حين ذهب أصحاب النظريّة الثانية إلى أنّ اللغة تعدّ من النتاج الاصطلاحي الذي يتمّ وضعه من قبل الناس أنفسهم، وكان لهم في ذلك أدّلة نقليّة وأخرى عقلية ، فمن أدلّتهم النقليّة قوله تعإلى: } وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ {(سورة ابراهيم، الآية:٤) ،"وهذا يقتضي تقدّم اللغة على البعثة، ومن أدلّتهم العقليّة كون اللغة من الله، يقتضي إيماء ، وإشارة ، وذلك محال بالنسبة له تعالى؛ لأنّه يحتاج إلى جارحة ، وهو منزّه عنها" (ينظر: هلال، أحمد عبد الغفار، ٢٠٠٧م، ٥٦).

ومعروف انّ أوّل من رسم حدّ للغة ابن جني بتعريف جامع مانع هو ابن اجني (٣٩٢هـ) في باب القول على اللغة بقوله: " إنها أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم" (ابن جنيّ، ١٩٥٤م: ٣٣/١) ، وقد نقل أبو الفضل الطبرسيّ (٥٤٨هـ) قولاً للإمام جعفر الصادق (عليه السلام) في تفسير قوله تعالى :}وعلّم آدم الأسماء كلها{ (سورة البقرة، الآية ٣١)، جاء فيه: "روي عن الصادق عليه السلام انَّه سُئل عن هذه الآية، فقال: الأرضين والجبال والشعاب والأودية ، ثم نظر إلى بساط تحته، فقال : وهذا البساط مما عُلِّم" (الطبرسيّ،٢٠٠٨، ٢/ ٣٤١)، فهذا النصُّ يكشف بدلالة قطعيّة لا تقبل الشكّ أنَّ الله تعالى علّم آدم الكائنات من حوله، من دابةٍ ، وأرض، وسهل وجبل ، وأشباه ذلك ، بل في إشارته (عليه السلام) إلى البساط ، بعد ذكر هذه الأشياء، إلا التنبيه على أنّ الله تعالى علّم آدم أسماء كل ما كان حوله من الأشياء التي يحتاجها أو يراها، وهذا النقل عن الإمام الصادق يتساوق مع مضمون الآية الكريمة الدّالّة على مفهوم الكليّة من خلال التوكيد المعنويّ بـ(كلّهم) التي تدلّ على عموم استقصاء المعرفة ، وكذا مما ورد عن الصحابة والتابعين ، فقد روي عن ابن عباس(ت٦٨هـ): "إنّه سبحانه علَّمه جميع الأسماء، والصناعات وعمارة الأرضين، والأطعمة، والأدوية، واستخراج المعادن، وغرس الأشجار ومنافعها" (الطبرسيّ،٢٠٠٨م: ٣٤١/٢)، فمن هذا نرى ان الإمام الصادق (عليه السلام)، كان مع الرأي الذي يقرر نشأة اللغة من الله نشأة توقيفيّة.

فالإمام الصادق (عليه السلام) يرى أنّ اللغات إلهامية، والله تعالى ألهم الإنسان أن يفصح عما يريده، وما يدور في ذهنه من الأفكار، أو ما يجول بخلده من الصور بما يناسبه من المفردات وبحسب الحاجة، والمعاني التي يريدها المتكلّم، وما موجود في محيطه من الأدوات، والنباتات، والحيوانات، وأن أوّل من عُلِّمَ ذلك أبوهم آدم، وهم عُلِّموا كما عُلَّم وإنْ اختلفت اللغات، باختلاف الأماكن، أو القبائل، أو القوميات.

المحور الثاني- النظر اللغويّ النحويّ في موقفه من النحو العربيّ:

إنّ النحو منذ وضع أولى لبناته ولد في رحم الخلافات، وخضع لتفسيرات عدّة، وتأويلات ، وتعليلات مختلفة بحجج ، وأدّلة متنوعة، وآراء متباينة نخرت تماسك التراكيب اللغويّة، بتعدد الآراء النحويّة في المسألة النحويّة الواحدة ،واختلاف الأحكام فيها الذي يشتت ذهن المتلقي، أو القارئ، لدرجة جعله يتخبّط بين هذا الحكم، أو ذاك، فاللغويون من النحاة تفننوا في تلك التعليلات لدرجة انهم يؤولون الشواهد لتساق مع ما يرونه مناسبا لآرائهم، واستنباطاتهم للأحكام ، ،إذ "أنّهم التزموا ما لا يلزمهم، وتجاوزا فيه القدر الكافي فيما أرادوا منها ، فتوعّرت مسالكها ، ووهنت مبانيها "(حسن، عباس،٢٠١٣م: ٢٤٣).

مع هذا كلّه يعدّ دراسته ، وفهم أحكامه هو فهم للعربيّة، واختلاف الآراء فيه قد يرجع إلى اختلاف اللغات، وعدم استقصاء كل مفردات اللغة؛ لذلك فالأئمّة (عليهم السلام) حثّوا على تعلّم العلوم ومنها العربيّة ونحوها لتجنب اللحن في اللسان، لا للوقوع في التأويلات الكثيرة التي ارهقت المتعلمين للغة، إذ نُسِبَ قول للإمام علي (عليه السلام) في معدن

الجواهر للكراجكي (ت٤٤٩هـ): "العلوم أربعة: الفقه للأديان، والطب للأبدان، والنحو للسان، والنجوم لمعرف اللسان" (الكراجكي، ١٣٩٤هـ :٤٠).

" وجاء في الخبر عن حويزة بن أسماء قال: قلت لأبي عبد الله يقصد الإمام الصادق– (عليه السلام) : انّك رجل لك فضل، لو نظرت في هذه العربيّة، فقال: (لا حاجة لي في سهككم هذا)" (الطبرسيّ، النوريّ، ٢٧٨/٤)،(البروجرديّ:١٥/ ٣٥) .

وهنا يلاحظ ان الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) وصف اللغة ب(السهك)، فما الذي كان يقصده من ذلك، فلو رجعنا إلى المعجمات اللغويّة، نجد الخليل(ت١٧٠هـ) يقول: "السَّهَكُ: ريحٌ كريهةٌ تَجْدُها من الإنسانِ إذا عَرَقَ. تقول: إنّه لَسَهِكُ الرّيح"(الخليل، ٣٧٣/٣، مادّة "سهك")، وقد بيّن ابن فارس (ت٣٩٥هـ) انّ اجتماع هذه الحروف يأتي للدلالة على أصلين إذ قال: " سَهَك: السِّينُ وَالْهَاءُ وَالْكَافُ أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا يَدُلُّ عَلَى قَشْرٍ وَدَقٍّ، وَالْآخَرُ عَلَى الرَّائِحَةِ الْكَرِيهَةِ، فَالْأَوَّلُ قَوْلُهُمْ: سَهَكْتِ الرِّيحُ التُّرَابَ، وَذَلِكَ إِذَا قَشَرَتْهُ عَنِ الْأَرْضِ. وَالْأَصْلُ الثَّانِي السَّهَكُ، قَالَ قَوْمٌ: هُوَ رَائِحَةُ السَّمَكِ مِنَ الْيَدِ وَيُقَالُ بَلِ السَّهَكُ: رِيحٌ كَرِيهَةٌ يَجِدُهَا الْإِنْسَانُ إِذَا عَرِقَ. وَمِنْ هَذَا الْبَابِ السَّهَكُ: صَدَأُ الْحَدِيدِ." (ابن فارس، ت٣٩٥هـ، ١١٠/٣(سهك))، وهذا الأصلان مما يمكن أن نعدّها من الصفات المذومة، أو من العيوب إذا وصفنا بهذه المفردة شيئا ما، وابن القوطية (ت ٣٦٧هـ) يقول : "سَهكت ريح الإنسان سَهكاً: تغيّرت من عَرق أو غيره" (ابن قوطيّة، ١٩٩٩م :٣٨٧/٢)، فلم يختلف عن سابقيه فالسَهكُ هو "مصدر ... وهي ريح كريهة توجد في الإنسان إذا عرق .... والسّهك أيضاً ريح السّمك" (ابن قوطيّة، ١٩٩٩م :٣٨٧/٢) تكشف هذه المفردة اللغويّة التي وصف بها الإمام الصادق (عليه السلام) أهل اللغة ونحوهم الذي جاءوا به مبالغا لما مطلوب لكثرة الخلاف بينهم ، مدى تذمّره منهم في زمانه الذين أساءوا إلى النحو بهذه الجعجعة، والآراء المتباينة ، والتأويل في كُتُبهم، وكثرة التقدير والتخريج، وذلك نتيجة التمسك بالرأي، ومحاولة إبطال حجة الطرف الآخر، وكان تأثّر النحويون في تعاملهم مع اللغة العربيّة نتاجا لاختلاف مناهجهم العقيديّة، فتوزعوا في أربعة مناهج رئيسة هي: منهج أهل السنة والجماعة، ومنهج المعتزلة، ومنهج الإماميّة، ومنهج الخوارج، فالدرس اللغويّ لم يكن بريئاً كما يظنّ من لا علم له ولم يكن علمياً أيضاً، إذ إنهم يقولون إنّ قواعدهم بنيتْ للحفاظ على القرآن من اللحن مع هذا نجد القرآن يخالف قواعدهم في مواضع ليست قليلة غفلوا عنها، وربما تغافلوا، وفي الحقيقة أنّهم وضعوا قواعد لكلام العرب لا للقرآن نفسه ، من ذلك ما قاله الفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ): "وكثيراً ما أرى النحويين يتحيَّرون في تقرير الألفاظ الواردة في القرآن، فإذا استشهدوا في تقريرها ببيتٍ مجهول فرحوا به وأنا شديد العجب منهم"(الرازيّ،فخر الدين،٢٠٠٥م،٦٥/١)، فلم يكن موقفهم سليماً في وضع القواعد اللغويّة، فهم يسخرون النصوص ويوظفونها لبناء القواعد النحويّة ويتلاعبوا بها بما يتوافق مع أهوائهم ، وهو ما عبّر عنه الإمام الصادق (عليه السلام) بالقول: "أصحاب العربيّة يحرّفون الكلم عن مواضعه" (النمازيّ، علي ، ١٤١١هـ:٤٥/٨)، ولم يأتِ كلام الإمام الصّادق(عليه السلام) عن فراغ ، وإنّما يمثّل الصَّورة التي كان عليها أغلب اللغويّين ، وما يؤيد ذلك الدراسات الحديثة ، ففي دراسة للدكتور محمود حسني اسماها (تسخير سيبويه الشعر العربيّ لبناء قواعده النحويّة) يكشف زيف أحد كبرائهم في هذه الصناعة، يقول :" إنّ سيبويه صنع الكثير من الألفاظ وطعّمها في الشعر العربيّ المرويّ في عصور الاحتجاج ، من أجل أن يسخر هذا الشعر العربيّ، ويوظفه لبناء القواعد النحويّة ، وكأنه لم يكن يكتفي بشاهد، أو شاهدين يرويها روايةً صحيحة، وإنما كان يتزيدُ من الشواهد، فكان حين لا يجد شواهد كافية يسخر شواهد أخرى بعد أن يحرّفها ويتلاعب فيها ، وللأسف فقد انجرف النحّاة وراءه وساروا في ركابه، وهذا يتنافى مع الدقة العلميّة وأمانة الباحث، وبذلك يبيّن أن شواهد سيبويه بروايته هو بحاجة إلى تثّبت منها وتمعّن فيها، وبذلك ما عادت رواية سيبويه موثوقاً بها"(حسني، محمود، ٢٠٠٦:٣٣).

وليس الكذب والاختلاق مقصور على سيبويه، إذ يَعرف هذا كل من عانى مطالعة معجمات اللغة، وكتب النقد القديم، ورأى اتِّهام العلماء بعضهم بعضاً ، بل وصل الحدّ أن يصف أحدهم الآخر بالخلاعة ، من ذلك قول الفخر الرازيّ (ت٦٠٦هـ)":وأيضاً فالأصمعي كان منسوباً إلى الخلاعة ، ومشهوراً بأنَّه كان يزيد في اللغة ما لم يكن منها)(الرازيّ، فخر الدين،٢٠٠٥م، ٩٩/١)، وهاتان الخصلتان كافيتان لإبعاد الأصمعيّ من الدور التوثيقيّ اللغويّ، إلا ما كان منقولا بالتواتر.

وكانت إشارة الإمام الصادق (عليه السلام) إلى تحريف اللغويّين إشارة رائدة في هذا الجانب، إذ تسلط الضوء على عدم الوثوق في كلام اللغويّين الذين غيّروا الروايات، وقد يكون ذلك لعلّ من لميل العرب إلى المعنى ، أو لعدم تمكنهم من حفظ النصّ، فينقلوه بما يناسب معناه، ولهذا نجدهم في نقل الآثار قد يضعون لفظاً مكان اللفظ آخر، وقد يروون الأثر بالمعنى، وبناء على ذلك لا يبعد أن تفتقد كلمة، أو عبارة في قصيدة، فيضع الراوي مكانها ما يناسب السياق ويتمم المعنى، ومنها أنّ الراوي قد يروي قصيدة، فيتصرف في بعض ألفاظها، أو يرويها طبقاً للهجته التي دُرج عليها في النطق والأداء.

ونخلص من ذلك أن كل تحريف، أو تغيير، أو تخليط قد حدث للشواهد إنما كان أحد الأسباب التي زادت في المسائل النحويّة وتفريعاتها والخلافات التي دارت بين النحاة حولها ، مما عاد على النحو بالتضخّم ، والتشويش والتعقيد ، وأكاد أقول جاءت البلبلة لدى الناشئة ، لما حملته الشواهد المصنوعة من شذوذ وضرورات ومخالفات للمألوف من القواعد، وليت الميسرين اللغويّين عند النظر في وسائل تيسير النحو العربيّ للدارسين أن يستبعدوا كل خلاف نحويّ أساسه مثل هذه الروايات المصنوعة، أو المحرّفة، أو الشاذّة ، مما حدا بالإمام الصادق (عليه السلام) إلى الإقلال من هذه المماحكات اللفظيّة ، وحذر من الإكثار من النحو تبعاً لإسلافه في هذا الخصوص.(الطائيّ، زيد، ٢٠١١م: ٢٣٣)، يقول الإمام الصادق (عليه السلام):"من انهمك في طلب النَّحو سُلب الخشوع" (النمازيّ، علي ١٤١١هـ: ٣٨/٦)، إذ أصبح النحو مدعاةً للتباهي والتفاخر، وهو ما تغصُّ مجالسهم به ، فأنّهم إذا أرادوا امتحان أحد منهم أُلقوا إليه جملةً معقدةً وطلبوا منه إعرابها ، فإذا تلكأ، أو تلعثم استهانوا به ، وقد أدّى هذا بالخطيب أن يبطئ في النطق وأن يتنطع به كي يبرهن للمستمعين أنه بحر عميق ، وواقعه خواء من الباطن ، ومن ذلك ما أشار إليه الإمام الصادق(عليه السلام) بالقول: (تجد الخطيب يتقن نطق الألفاظ وقلوبه أشدّ ظلمة) (النمازيّ، علي ١٤١١هـ: ٣٨/٦).

المحور الثالث– النظر اللغويّ البلاغيّ في معرفيّة الإمام جعفر الصادق (عليه السلام):

من أبرز خصائص لغتنا بلاغة التعبير، فهي صفة تطلق على الكلام عن طريق أساليب بلاغية مثل الايجاز، الاطناب، التعريض، الكناية، التشبيه، الاستعارة، التضاد، ..ألخ، وهذه الصفة لا تحقق من دون قائل ، أو كاتب بليغ، فلإمام الصادق (عليه السلام) تربّى في بيئة لغويّة فصيحة، فهو نسل الرسول الكريم(صلى الله عليه وسلم) ،إذ قال الرافعيّ عن فصاحته: " أما فصاحته صلى الله عليه وسلم، فهي من السمت الذي لا يؤخذ فيه على حقه، ولا يتعلق بأسبابه متعلق...ولا نعلم أن هذه الفصاحة قد كانت له صلى الله عليه وسلم إلا توفيقًا من الله وتوقيفًا؛ إذ ابتعثه للعرب وهم قوم يقادون من ألسنتهم...فكان صلى الله عليه وسلم يعلم كل ذلك على حقه، كأنما تكاشفه أوضاع اللغة بأسرارها، وتبادره بحقائقها، فيخاطب كل قوم بلحنهم، وعلى مذهبهم، ثم لا يكون إلا أفصحهم خطابًا، وأسدَّهم لفظًا، وأبينهم عبارة. ولم يعرف ذلك لغيره من العرب"(الرافعيّ، مصطفى صادق، ٢٢٤–٢٢٥)، وعلى هذا كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) بلاغيا في عباراته، ومهذّبا في ألفاظه، وتبعه في ذلك أهل بيته، وأبنائهم فهم يملكون جميعا صفة بلاغة المتكلّم في كل ما يتحدثون به، فهذه السمة تعدّ "ملكة راسخة في نفس صاحبها يتمكّن بها من تأليف كلام بليغ في أي معنى يريد،

وصاحب هذه الملكة بليغ وإن لم ينطق، أي بليغ بالقوة فإذا نطق أو كتب كان بليغا بالفعل، ولا يكون بليغا من يقدر على صوغ الكلام البليغ في عرض دون آخر" (عبده، قليقلة،١٩٩٩م، ٤٣) ، وعندما تُحلل إحدى منثورات الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) لبيان صورة من صور البلاغة العربيّة – وذلك في وصيته (عليه السلام) لصديقه عبد الله بن جُنْدب– تجد أنَّ نصّ الوصيّة جمع بين الترغيب وما ينطوي تحته من الايجابيات ، والترهيب وما ينطوي تحته من السلبيات فبضدهما تتبين الاشياء، والقصد منها بعث المتلقي على التفكّر والتدبّر للصفات الايجابية التي يحدثها الله، وكل الصفات السلبية يحدثها الشيطان ومن اتبعه . من خلال تعالق الكلمات في تراكيب نتج عنها فاعلية دلالية مكّنت المتحدّث – عليه السلام – من ايصال مقصديته بمادّته اللغويّة . ويرى (جان كوهن) أنّ الدلالة " مجموع التأليفات المتحققة لكلمة ما "(كوهن جان تر،١٩٨٦، ١٠٦) بهدف تحريك الفاعلية الذهنية ، والشعورية للمتلقي ، وهو يبحر في عالم التأويل لفك شفرات النص التي تختبئ خلف الكلمات لكشف المعنى الذي ترمي إليه الدلالة .

إذ إنَّ قيمة اللغة وأهميتها نابعة من وظيفتها الأساسية المتمثلة في التوصيل، أو النقل ، أو التعبير عن طريق الأصوات الكلاميّة (ينظر: السعران، محمود، ١٩٣٦م، ١٢)، وعن طريق تطويع اللغة لتتناسب مع المضمون، أو المقصدية من خلال اجتلاب المعاني الثواني وَفقًا لآليتين جوهرتين هما تأدية المعنى ، وتأدية معنى المعنى .(الجرجانيّ، عبد القاهر، ١٩٧٩م، ١٨٤).

وههنا سعت الباحثة إلى رصد لمحات من المستويات الدلاليّة البلاغيّة لوصية الإمام لصديقه ابن جندب بغية استنطاق دلالتها . ومن أبرز الثيمات الأساس التي تحرك دلالة النص البلاغيّة في أكثر من موضع (أسلوبيّ الشرط والتضاد) بالتضافر مع الأساليب الأخرى من تشبيه واستعارة ، وكناية ، والتفات ...الخ . لتعضيد المعنى واثرائه عن طريق " تقاطع الدوال بالمدلولات ، والمزج بين المتنافرات ، وصهرها في كيان واحد يعانق فيها الشيء نقيضه ، فيتفاعلان في سياق دلالي " (عابدين، محمد،٢٠٠٠م، ١٤٠)، وقد انتجت وصية الصادق –ع– دلالة التضاد على نحو مميز من الكثرة والانتشار " تعمل على متابعة النصّ، وما يتشكل عنها من علاقات تتحرك في تواتر متجاذب وكأنها شبكة تتابع خيوطها ، وتتبادل مواقعها ، وتتشابك تطريزاتها على جسد النص ، كما تقوم بدور حيوي فاعل في تأسيس الوجه الأهم في البنية ، وفي النص" (شرتح، عصام، ٢٠٠٥م، ٤٧).

وعند استقراء وصية الإمام جعفر الصادق (عليه السلام)، وجدته لم يستعمل الثنائيات الضديّة الغامضة، أو الغريبة بل الشائعة المعروفة لتخاطب العقول بما تفهمه من المعاني، بعيدا عن الغموض، وهذا جانب بلاغي، وقد أجاد في توظيف تلك المعاني في سياق نصيّ متماسك .

فقال :" يا عبد الله لقد نصب ابليس حبائله في دار الغرور فما يقصد فيها الا أولياءنا، ولقد جلت الآخرة في أعينهم حتى ما يريدون بها بدلا " ثم قال " آه آه على قلوب حشيت نورا ، وانما كانت الدنيا عندهم بمنزلة الشجاع الأرقم ، والعدو الأعجم ما أنسوا بالله ، وما استوحشوا مما به استأنس المترفون أولئك أوليائي حقا بهم تكشف كل فتنة ، وترفع كل بلية " (البصريّ، ٢٠٠٤م،٨٦) ، فهذا النصّ يفصح بأسلوب موجز عن ثراء دلالي من خلال تعاضد وتضافر أسلوب الثنائيات الضدية مع أسلوب الكناية . بين الدنيا وزخرفها ، والآخرة ونعيمها . إذ ابتدأ بحرف النداء (يا) في قوله (يا عبد الله ...) للدلالة على منزلته وقربه من الإمام ، ومن ثم استعمال حرف التحقيق مع الجملة الفعلية (لقد نصب ابليس حبائله) كناية عن مكائده ودسائسه قاصدًا أولياء الله ليغريهم بها . لكنه لحقها بحرف التحقيق (لقد) الذي يؤكد تمسكهم بالآخرة بعد ان تبيت لهم معالمها وما وعدهم الله فيها من الخير الكثير . إذ كانت الدنيا في أعينهم بمنزلة (الشجاع الارقم) ، كناية عن اخبث الحيات التي تبث سمومها وقد تقلع رأس الفارس عن جسده من شدته. ومن ثم كنى عن عدم فهمهم وتمييزهم بين من استأنسهم بجوار ربهم . وعن استوحاشهم وابتعادهم عنه . فنالوا المستأنسين درجة الأولياء المترفين .

ثم قال :" يا ابن جندب حق على كل مسلم يعرفنا أن يعرف عمله في كل يوم وليلة على نفسه ، فيكون محاسب نفسه فأن رأى حسنة استزاد منها ، وان رأى سيئة استغفر منها لئلا يخزى يوم القيامة . طوبى لعبد لم يغبط الخاطئين على ما أتوا من نعيم الدنيا وزهرتها طوبى لعبد طلب الآخرة وسعى لها طوبى لمن لم تلهه الأماني الكاذبة " . (البصريّ، ٢٠٠٤م،٨٦)

إنّ التقابل بين الجمل المتضادة والمتداخلة مع أسلوب الشرط أكسبّ النص قوته التعبيرية؛ لأن " التركيب الشرطي يرتبط نتيجة المشروط عليه ، بهدف الشارط وقصده ، فأن تحقق الهدف تحققت الغاية ، والنتيجة المتوخاة"(الدجيليّ، حسن عبد الهادي، ٢٠٠٥م،٩٩).

ففي قوله : فأن رأى حسنة استزاد منها) و (ان رأى سيئة استغفر منها) جاءتا لتؤكد المعنى عن الوعد الذي قطعه الله سبحانه وتعالى للمؤمنين لمن يعمل بما أمره الله به وينهى نفسه عما نهاه عنه بأن موعدهم الجنة . فالوعد والوعيد بالرغم من انهما مرتبطان بالفعل الإنساني فانهما ينبئان عن مصير الإنسان في العالم الآخر؛ لأن الأنسان مكلف في هذه الحياة فلا بدّ له من حساب على عمله لأن الله " وعد المطيعين بالثواب ، وتوعد العصاة بالعقاب ، وأنه يفعل ما وعد به وتوعد عليه لا محالة "(أحمد، عبد الجبار، ١٩٦٥م، ١٣٥-١٣٦م).

وقد استدلَّ بآية من القرآن الكريم ، وأحاديث للرسول (ص) حجة على مصداقية دعواه بتوظيف الجمل الشرطية في قوله :" يا ابن جندب إنما المؤمنون يخافون الله ، ويشفقوا أن يسلبوا ما أعطوا من الهدى، فإذا ذكروا الله ونعماءه وجلوا وأشفقوا ،وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون " ، فهذا النص مقتبس من قوله تعالى من سورة الأنفال :

{ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} (الأنفال،أية ٢).

وقد ادّى دخول أداة الشرط (إذا) على الفعل الماضي إلى توظيف خاص للفعل ، إذ افرغت صيغته سياقيا من دلالتها على الزمن الصرفي – ماضي – إلى صرف الفعل نحو زمن الاستقبال، (السامرائيّ، فاضل،١٩٩٠م، ٣٠٤/٣-٣٠٥)، لذا يرى د. مالك المطلبيّ أن النص الذي تكون فيه جملة الشرط وجوابه فعليتين فعلهما ماض يعبر بهما " عن حقائق وقعت ، وتقع الآن ، وستقع بشكل مؤكد" (المطلبيّ، مالك يوسف،١٩٨١م، ١٥٢).

ثمّ قال :" يا ابن جندب صل من قطعك . وأعطِ من حرمك وأحسن الى من أساء اليك . وسلم من سبك وأنصف من خاصمك . واعفُ عمن ظلمك كما أنك تحب أن يعفى عنك فاعتبر بعفو الله عنك . ألا ترى أن شمسه أشرقت على الابرار والفجار ، وأن مطره ينزل على الصالحين والخاطئين " (البصريّ، ٢٠٠٤م،٨٧)، وهذا النص مقتبس من وصية رسول الله (ص) إلى الإمام علي عليه السلام الذي ابتدأ بقوله " ان اردت أن تسبق الصديقين صلْ من قطعك واعطِ من حرمك .... الخ.

" يا ابن جندب : ان احببت أن تجاور الجليل في داره وتسكن الفردوس في جواره فلتهن عليك الدنيا ، واجعل الموت نصب عينيك ولا تدخر شيئا ، واعلم ان لك ما قدمت وعليك ما أخرت ". وقال " فان من قنع شبع ، ومن لم يقنع لم يشبع . وخذ حظك من آخرتك ، ولاتكن بطرا في الغنى ولا جزعا في الفقر ، ولاتكن فظا غليظا يكره الناس قربك ، ولاتكن واهنا يحضرك من عرفك ولاتشار من فوقك ولا تسخر بمن هو دونك ". (البصريّ، ٢٠٠٤م،٨٧).

يتجّلى في هذا السياق النصيّ السمات الأسلوبية التي هيمنت عليه تكثيف جواب الشرط لفعل شرط واحد، وهو قوله "ان احببت ان تجاور الجليل في داره وتسكن الفردوس في جواره" فهناك جملة شروط عليك العمل عليها وهي (فلتهن عليك الدنيا) و (اجعل الموت نصب عينيك) و (لا تدخر شيئا) و (لك ما قدمت وعليك ما اخرت) و (لاتكن بطرا في

الغنى ولا جزعا في الفقر) و (لاتكن فظا غليظا يكره الناس قربك) و (لاتكن واهنا يحضرك من عرفك ولا تشار من فوقك) و (لاتسخر من هو دونك).

نجد جواب الشرط تتوقف عليه سببية الشرط ، ومن ثم وقوع الامور وترتيبها وبذلك يكون في اطار الشيء اليقيني . لتتحقق مقصدية الامام بإعادة الناس المشتغلين بالدنيويات الى جادة طريق الآخرة .

وكرر جواب الشرط لفعل شرط واحد أيضا في موضع آخر من الوصية . في قوله:" يا ابن جندب لو أن شيعتنا استقاموا لصافحتم الملائكة ، ولأظلهم الغمام ، ولأشرقوا نهارا ، ولأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ولما سألوا الله شيئا الا أعطاهم " . (البصريّ، ٢٠٠٤م،٨٦).

فكان الغرض من هذا التكثيف تقوية المسلك الأسلوبيّ خدمة للقضية المطروحة عن طريق التنوع الدلاليّ المرتكز على النمط الشرطيّ ، وبذلك حوى النص على انزياح دلاليّ وتركيبيّ في الجملة الشرطية من خلال تكرار جواب الشرط اكثر من مرة لفعل شرط واحد.

وغالبًا ما يتم الانتقال في وصية الإمام من مخاطبة المفرد الى مخاطبة الجماعة في قوله : " يا ابن جندب لاتقل في المذنبيين من أهل دعوتكم إلا خيرا . واستكينوا الى الله في توفيقهم وسلوا التوبة لهم . فكل من قصدنا ووالانا . ولم يوال عدونا . وقال ما يعلم وسكت عما لا يعلم أو أشكل عليه فهو من أهل الجنة " . (البصريّ، ٢٠٠٤م،٨٦).

كان للتبادل الالتفاتي بين (لا تقل....) العائد الى جندب وقوله (استكينوا) و (سلوا) . يشكل ملمحا أسلوبيا بارزا . وكأنه أراد من وراء ذلك التوحّد بين جندب وبقية الأشخاص الذين يشاطرونه من خلال ثيمة مشتركة تجمعهم . فصور لنا ولهم حالة الاتحاد والامتزاج ضمن نطاق مايوازي به نصائحه لجندب . وبذلك حقق الالتفات " انعطافة اسلوبية واعية ، تمنح النص دفقة دلالية مكثفة ، يستدعيها تتابعه السياقيّ "(محمد، عشتار ، ٢٠٠١م، ١٠٢).

إذن المقصديّة في هذه الوصية ليس جمعا للمتضادات والمتناقضات ، بل محاولة التغيير والإصلاح في ذهن ورؤى الآخرين ليكسبوا مرضاة الله ونعيمه الذي اعدّه لهم في الجنة.

المحور الرابع– النظر اللغويّ التعليليّ للمسميات في معرفيّة الإمام جعفر الصادق (عليه السلام).

لقد كان لنظريّة الاشتقاق طريقٌ سار عليه العقل اللغويّ العربيّ، ونقل تصوراته التي تتجلى فيها كيفية تكّون الألفاظ اللغويّة، وتسوق طبيعة العقل البشريّ تساؤلات عدّة عن الأسباب الرئيسة وراء أيّة ظاهرة مهما كان نوعها، فيعمد إلى البحث عن تفسيرها، ويجعل لها أحكاما يراها منطقيّة (ينظر: الطائي، زيد، ٢٠١١م: ٢٣٣)، والتعليل في البيئة الإسلامية أثر من آثار يقظة العقل.

وتعدُّ مسألة تعليل الألفاظ من المسائل التي كانت على طاولة البحث العلميّ ، فإن لكل (كلمة) علة تسمية ، يقول ابن الأعرابيّ (ت٢٣١هـ):"الأسماء كلها لعلّة خصت العرب ما خصت منها من العلل ما نعلمه ومنها ما نجهله" (السيوطي، ٤٠٠/١ والصدوق،٢٠٠٢م :٣٩٧/٢) إلا أن مكة سميت مكة لجذب الناس إليها، والبصرة سميت البصرة للحجارة البيض الرخوة بها، والكوفة سميت الكوفة لازدحام الناس بها، من قولهم تكوف الرمل تكوفا إذا ركب بعضه بعضا (الصدوقي، فإن قال قائل: لأي علة سميت الرجل رجلا والمرأة امرأة والموصل الموصل ودعد دعدا ؟ قلنا : لعلل علمتها العرب، وجهلناها أو بعضها، فلم تزل عن العرب حكمة العلم بما لحقنا من غموض العلّة، وصعوبة الاستخراج علينا)(أمين، عبد الله، ١٤٢٣هـ: ٣٤٥).

ويتفرع موضوع (تعليل التسمية) عن علم الاشتقاق بمعناه العام، والاشتقاق كما عرّفه الرمانيّ (ت٣٨٤هـ) بأنه " اقتطاع فرع من أصل يدور في تصاريفه على الأصل" (الرمانيّ، علي بن عيسى ،د.ت، ٦٩) وهو واحدٌ من صور الرّبط الاشتقاقي بين الاسم والمسمى . وكان للعلماء قديماً اهتمام وولع به ، ولا تكاد تخلو مظانهم من تعليل اسم ما بين طيّات صحيفاتها ، أو بيان لسبب اشتقاقه في سياق شرحهم للوحدات المعجميّة، أو تفسيرهم لآيات قرآنية كريمة، أو أحاديث نبويّة شريفة، أو عند معالجة مسألة لغويّة

وكان للإمام جعفر الصادق (عليه السلام) إسهامات مميزة في هذا الحقل المعرفيّ ؛ وذلك من خلال تأصيل كثير من الأسماء ، ومنها:

– **آدم** : قال الإمام الصادق (عليه السلام):"انَّما سُمي آدم آدم؛ لأنّه خلق من أديم الأرض" (الصدوق ، القميّ، ٢٠٠٢م: ٤٥)، وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم في قوله تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا}(سورة البقرة الآية ٣١) و قوله تعالى: {قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ} (سورة البقرة الآية ٣٢{وعلم آدم الاسماء كلّها)(سورة البقرة، الآية :٣١)، وفي مواضع أخرى، وكان وروده للدلالة على اسم أوّل خلق من الإنس وهو أوّل نبي للبشرية آدم (عليه السلام)، وقد ذكر الأنباريّ (ت٣٢٨هـ) عن ابن عباس إنّ " آدم مأخوذ من أديم الأرض" (الأنباريّ، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م: ٣٨٤/١)، ثم بيّن مخالفة ابن قطرب لهذا الرأي بقوله: "وقال قطرب: لا يصح في العربيّة أن يكون (آدم) مأخوذاً من أديم الأرض؛ لأنه لو كان كذلك لكان منصرفاً، لأنه يكون: فاعَلاً، بمنزلة: خاتمَ وطابَق" (الأنباريّ، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م: ٣٨٤/١) ، إمّا ابن فارس (ت ٣٩٥هـ)، فقد بيّن ان "أَدَمَ الْهَمْزَةُ وَالدَّالُ وَالْمِيمُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ الْمُوَافَقَةُ وَالْمُلَاءَمَةُ" (ابن فارس ،١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م،١/ ٧١، مادّة (أدم)). إلا انه علل ربط الاسم بلون بشرة الإنسان للدلالة على المسمّى ، إذ قال: " فأما اللون الآدم، فلأنه الأغلب على بني آدم" (ابن فارس ،١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م،١/ ٧١، مادّة (أدم).)

– **الإنسان** : قال الإمام الصادق (عليه السلام) :"سُمي الإنسان إنساناً ؛لأنه ينسى " (الصدوق ، القميّ، ٢٠٠٢م: ٤٦). وقال ابن منظر (ت٧١١هـ) في لسان العرب : "يعني بالإنسان آدم.... وإنْسانٌ في الأَصل إِنْسِيانٌ، وهو فِعْليانٌ من الإنس والأَلف فيه فاء الفعل " (ابن منظور ، ١٤١٤هـ، مادّة (أنس).)، وقال نقل الزبيديّ (ت ١٢٠٥هـ) ما روي عن ابن عباس ان سبب التسمية متأت من النسيان، و رأي الازهري كان في انه مشتق للدلالة على الأنس وهو الإبصار والعلم والإحساس إذ قال : " رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إنما سمي الإنسان إنسانا؛ لأنه عهد إليه، فنسي، قال الأزهري: وإذا كان الإنسان في أصله إنسيان فهو إفعلان من النسيان، وقول ابن عباس له حجة قوية، وهو مثل: ليل إضحيان من ضحي يضحى، وقد حذفت الياء فقيل: إنسان، وهو قول أبي الهيثم، قال الأزهري: والصواب أن الإنسيان فعليان من الإنس، والألف فيه فاء الفعل، وعلى مثاله حرصيان، وهو الجلد الذي يلي الجلد الأعلى من الحيوان. وفي البصائر للمصنف: يقال للإنسان أيضا أنسان، أنس بالحق وأنس بالخلق، ويقال: إن اشتقاق الإنسان من الإيناس، وهو الإبصار والعلم والإحساس، لوقوفه على الأشياء بطريق العلم، ووصوله إليها بطريق الرؤية وإدراكه لها بوسيلة الحواس، وقيل: اشتقاقه من النوس وهو التحرك، سمي لتحركه في الأمور العظام، وتصرفه في الأحوال المختلفة وأنواع المصالح، وقيل: أصل الناس الناسي...إشارة إلى عهد آدم حيث قال: { لَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ}" (سورة طه، الآية ١١٥). (الزبيديّ ، ١٩٦٥–٢٠١١م، مادة (أنس).)

ومن تعليلاته أيضا ما جاء في الأسماء الآتية:

– **حواء**: قال الإمام الصادق(عليه السلام): " سميت حواء ؛ لأنّها خُلقت من حي "(الصدوق، القميّ، ٢٠٠٢م: ٤٧). وكذلك علل لتسمية المرأة بقوله: (عليه السلام):"سميت المرأة مرأة ؛لأنّها خلقت من المرء" (الصدوق، القميّ، ٢٠٠٢م:

٤٩). وبيّن أن سبب تسمية النساء ليأنس آدم بها ، جاء ذلك بقوله (عليه السلام): "سمي النساء نساءً؛ لأنه لم يكن لآدم (عليه السلام) أُنس غير حواء" (الصدوق ، القميّ، ٢٠٠٢م: ٤٩). (٢٨).

وقد ربط ما كان عليه نوح بإسمه ، إذ قال الإمام الصادق : "إنَّما سمي نوحاً ؛ لأنَّه كان ينوح على نفسه" (الصدوق ، القميّ، ٢٠٠٢م: ٤٩) .

– أمّا النّجف وهي من مدن العراق، فقد علل الإمام الصادق (عليه السلام) تسميتها بالرجوع إلى أصلها الجغرافيّ، فقال (عليه السلام): " إنَّ النجف كان جبلاً– وبعد حادثة الطوفان– صار بعد ذلك بحراً عظيماً وكان يسمى ذلك البحر بحر (ني) ثم (جف) بعد ذلك فقيل (ني) جف فسمي بنجف ثم صار الناس بعد ذلك يسمونه نجف؛ لأنّه أخفّ على ألسنتهم" (الصدوق ، القميّ، ٢٠٠٢م: ٥٥)، وعند تتبع تعليلاته للمسميّات تجد من ضمنها–اسرائيل، فعلل تلك التسمية بتقسيم الإسم على كلمتين كل واحدة منها تدلّ على معن، وباجتماعهما يكون المعنى (عبد الله)، قال الإمام الصادق (عليه السلام) :"إسرائيل عبد الله ؛ لأنَّ إسرا هو عبد ، وإيل هو الله عز وجل" (الصدوق ، القميّ، ٢٠٠٢م: ٥٩).

يُفهم من هذه الكلمات واشتقاقاتها أنَّ الإمام الصادق (عليه السلام) يؤمن بالطبيعة الذاتية بين اللفظ والمعنى ، وجواز اشتقاق الكلمة من اللفظ الأعجميّ.

المحور الخامس– النظر الصوتيّ في معرفيّة الإمام الصادق (عليه السلام):

تُعدُّ إشارات الإمام الصادق (عليه السلام) في موضوع الأعضاء النطقية من الإشارات المهمة التي أسهمت في بناء منظومة لغويّة معرفيّة في علم الأصوات ، إذ وصف الأعضاء النطقية وصفاً علمياً دقيقاً يضاهي المنجز الحديث في علم الأصوات ، وذلك من خلال ما نقله أبو عبد الله المفضل (ت١٤٨هـ) في كتابه (توحيد المفضل) ، إذ وصف تلك الأعضاء ب(آلات النطق الإنساني) . وتتبعها من الحنجرة حتى الشفتين ، وهذا واضح حين يخاطب المفضل بهذا الكلام: "أطل الفكر يا مفضل في الصوت والكلام وتهيئة آلاته في الإنسان ، فالحنجرة كالأنبوبة لخروج الصوت ، واللسان والشفتان والأسنان لصياغة الأصوات والنغم ، إلا ترى أنّ من سقطت أسنانه لم يقم السين ، ومن سقطت أسنانه لم يقم السين ، ومن سقطت شفته لم يصح الفاء ، ومن ثُقل لسانه لم يفصح الراء ، وأشبه شيء بذلك المزمار الأعظم ، فالحنجرة تشبه قصبة المزمار ، والرئة تشبه الرَّق الذي ينفخ فيه لتدخل الريح ، والعضلات التي تقبض على الرئة ليخرج الصوت كالأصابع التي تقبض على الرّق حتى تجري الريح في المزامير ، والشفتان والأسنان التي تصوغ الصوت أصواتاً ونغماً كالأصابع التي تختلف في فم المزمار ، فتصوغ صفيره ألحاناً غير أنه وإن كان مخرج الصوت يشبه المزمار بالآلة والتعريف ، فإن المزمار في الحقيقة هو المشبه بمخرج الصوت" (المفضل، ١٤٣١هـ، ٦٧).

ويستفاد من هذا النص حقائق مهمة لعمل أعضاء النطق، وأثرها في إنتاج الأصوات، وتعدُّ إشارة الإمام الصادق(عليه السلام) في وصف مخرج الصوت بالمزمار محاولة سبقت ابن جني الذي شبه الصوت بالمزمار(ينظر:ابن جني، ١٩٥٤م، ٣٢٢/٣).

وهذه الإشارات واللفتات المهمة ينبغي الإفادة منها ، ولاسيما في باب علم الأصوات الفسلجيّ ، وهي تثبت عن فهمٍ ثاقب في هذا المجال، وليس لي السبق في بيان معرفته بعلم الأصوات، ومصطلحاته، وإنما حاولت أن اجمع جهده المعرفيّ اللغويّ، وكانت معرفته بالجهاز الصوتيّ ، وأعضائه، ووصفه الوصف الدقيق تعدّ اللبنة الأولى لعلوم اللغة، وقد سبق الكثيرين من علماء اللغة الذين نسب لهم الريادة في هذا المجال،

وفي كتاب المفضل من كلام للإمام جعفر الصادق (عليه السلام) ، ما يدلّ على أنه الرائد في فهم الأصوات و وصف جهاز النطق كونه توفي قبل الخليل، ومن الممكن ان الخليل أخذ منه هذا الفكر كونه كان ملازميه ومصاحبيه في تلك

الحقبة، لذا يعدّ سابقا لجهود الخليل وسيبويه وهناك اشارات لعلماء ذكرت ذلك منهم ابن سينا(ت ٤٢٨هـ) والفارابي(ت٣٥٠هـ) ،(ينظر: الأسديّ، ٢٠١٣م،٢٦٩-٢٧١) وكان قد شبه ابن جني مخارج الحروف بالناي الذي تسمع للهواء الخارج منه أصواتٌ مختلفة وذلك بوضع الأنامل على ثقوبه والمراوحة بينها. ونسبه ابن جنّي إلى بعضهم ولم يسمه؛ وهذا الوصف نفسه استعمله الإمام الصادق (عليه السلام) في ما قاله للمفضل إلا أنّ الإمام استعمل المزمار لا الناي، وهاتان التسميتان متقاربتان ، فالناي والمزمار من الأداوت الموسيقيّة التي تنماز بشكل يشبه القصبة الهوائية، وهذا ما كان يقصده ورجاحة التشبيه بالمزمار لما يشتمل عليه من فراغ واسع يحصر فيه الهواء يكون بمنزلة الرئتين. فضلا عن ان التفرقة بين مصطلحي الصوت، والحرف المنسوبة إلى ابن جنيّ هي من وضع الإمام جعفر الصادق(عليه السلام). وتأسيسا على ذلك يعدّ الإمام هو أول من وضع أسسا لعلم الأصوات. (ينظر: الأسديّ، ٢٠١٣م، ٢٧٤-٢٧٧).

المحور السادس – النظر اللغويّ في معرفيّة الإمام الصادق (عليه السلام) باللغات.

تعدُّ اللغة من مرتكزات الثقافات العالمية، فهي طريق التواصل بين الشعوب، وقد قيل في المثل (اعرف لغة عدوك تأمن شره) (النمازي، علي١٤١١هـ: ٤٦٣/٣)، والإمام الصادق (عليه السلام) ولا غرو رائدٌ في هذا المجال، وكيف لا وهو ينحدر من بيت علم وفضل "كبيرهم لا يقاس وصغيرهم جمرة لا تداس")(النمازي، علي١٤١١هـ:٥٨/٥).

فقد تكلّم الإمام الصادق باللغات عدّة ، لقد برع الإمام الصادق عليه السلام، في هضم اللغات جميعها وصار يتحدّث بها بكل طلاقة، والإمام هو حجة الله على العباد، فلا بدّ بأن يتقن جميع لغات البشر؛ لأنَّه الإمام المكلّف بتوصيل الأحكام الإلهية للناس، فيجب أن يتصل به الناس من غير حجب ولا موانع، ومعرفته عليه السلام بجميع اللغات تؤهله لهذا المنصب الرفيع.

فقد روي في بصائر الدرجات، أنَّه دخل على أبي عبد الله عليه السلام قوم من أهل خراسان فقال ابتداءً: "من جمع مالا يحرسه، عذبه الله على مقداره"، فقالوا بالفارسية ((لا نفهم العربيّة)) فقال عليه السلام لهم (هركه درم اندوزدجزايشذوزخباشد)"(الصفار، الحسن، ٢٠٠٨م،٣٤/٢).

وأما معرفته بالعبرية وتحدّثه بها فمما لا شكّ فيه أيضًا. فقد جاء في ثنايا الأحاديث المروّية عنه ما يثبت ذلك، وسأسوق حديثي عنه عليه السلام استشهاداً لا استقراءً .

في بصائر الدرجات:")(النمازي، علي١٤١١هـ،"؛ أي طلبوا كتابتها ، فـ" قال: اكتب: "نوح أيوا أدينوا يلهيز ما لحوا عالم أشرسوا أو صوبنوا يوسعه موسق ذعال اسطحوا"))(٣٥)، وفي حديث آخر جاء النص على النحو الآتي: "باروح أنا دونايايلوهنوا ملخ عولاماشرفدشنواعبسوتاوسينوانوا على هشخيطا)) يعني تباركت أنت الله إلهنا مالك العالمين الذي قدّسنا بأوامره، وأمرنا على الذبح. (الصفار، الحسن، ٢٠٠٨م، ٣٤/٢ (

فمن خلال هذا العرض السريع والإشارات الواضحة، يبين أن الإمام الصادق (عليه السلام) كان على معرفة تامة بلغات أهل عصره وأبناء مجتمعه مهما بعدت أوطانهم واختلفت ثقافاتهم.

الخاتمة

يعدُّ فكر الإمام الصادق (عليه السلام) اللغويّ ملمحاً مميزاً في تراثنا الإسلامي ، إذ تكشف إشاراته أنه يملك رصيداً معرفياً لغويّا يؤهله للقيمومة على كثيرٍ من مباحث اللغة، فكان من يرون ان اللغة الهاميّة من الله تعالى.

ولم يقف عند حدّ اللغة وأصلها كان للإمام الصادق (عليه السلام) وقفات في النظر للكثير من القضايا لاسيما في التيسير النحويّ، والموقف من النحو المعياريّ الذي قد يخالفه كلام العرب الفصحاء، ويذهب جماليّة وبلاغة كلامهم لكثيرة تأويلاتهم.

تميّزت نصوصه النثرية من خطب، أو وصايا ببلاغة التعبير، وتوظيفه تلك الملكة اللغويّة المعرفيّة كطريقة حسنة في اقناع الآخرين من خلال تصوير المتضادات في ذهن المتلقي ، ليوازن بينها، ويختار الأفضل بحسب ما يراه العقل والمنطق الإنساني.

إنّ مزج الأساليب البلاغيّة عند الإمام الصادق (عليه السلام) عن طريق تضافر أسلوب الثنائيات الضديّة مع أسلوب الكناية، أعطى تلك النصوص ثراءا دلاليا عميقا، ولا يتأتّى ذلك من ناطق غير بليغ ، فملكته اللغويّة البلاغيّة مكنته من سوق تلك السمة في ابراز المعاني بطريقة بلاغية.

كان الإمام الصادق (عليه السلام) من الأوائل الذين ربطوا الاسم بالمسمى، وعلل لكثير من الأسماء اللغويّة بتعليلات يقبلها العقل، والمنطق اللغويّ الاشتقاقيّ.

وكان له فضل السبق في علم الأصوات ، لا سيما كتابه (توحيد المفضل) الذي يحتاج إلى حفريات معرفيّة لاستنزاف عيوانه وثبج مساماته.

لم يقتصر نظره اللغويّ على جوانب اللغة العربيّة بفروعها، وإنما ذهب الى أبعد من ذلك ، فكان يتحدّث بلغات أخرى غير اللغة العربيّة، من اللغات الساميّة وغيرها، ليتمم نشر أحكام الدين ، وينقل تعاليم الإسلام التشريعة، بمحادثة من يتكلمون بتلك اللغات بلغاتهم .

ثبت المظان

القرآن الكريم.

- أمين ، عبد الله، الاشتقاق ، مصر، القاهرة، مؤسسة دار الثقافة العربيّة،الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ.
- الأسديّ، د. حسن عبد الغني الأسديّ، مجلة الباحث، جامعة كربلاء، العدد السادس، ١٠١٣م ،١٤٣٤هـ).
- ابن جني، أبو الفتح عثمان ابن جني(ت ٣٩٥هـ)،الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار ، الهيأة المصرية للطباعة ، مصر ، ١٩٥٤م .
- ابن فارس، أحمد بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت ٣٩٥هـ)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- ابن القوطية (ت٣٦٧هـ)،أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز ،كتاب الأفعال ، تحقيق: علي فودة ، دار إحياء التراث العربيّ، لبنان،بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٩م.
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي جمال الدين (ت٧١١هـ) بيروت، دار صادر، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.
- أحمد، عبد الجبار بن أحمد، شرح الأصول الخمسة، تحقيق: عبد الكريم عثمان، الطبعة الأولى، ١٩٦٥م.
- الأنباريّ أبو بكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشار(ت ٣٢٨هـ) ، الزاهر في معاني كلمات الناس، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، لبنان، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ =١٩٩٢م.
- البروجرديّ، حسين الطبطبائيّ (ت ١٣٨٣هـ =١٩٦١م) وتلاميذه، جامع أحاديث الشيعة في أحكام الشريعة، طهران، مطبعة المساحة ،١٣٩٩هـ.
- البغداديّ، عبد القادر بن عمر البغدادي(ت١٠٩٣هـ)، خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب ، ط١، مطبعة تيمور ، مصر، القاهرة ، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.
- البصريّ، مهدي العطبى البصريّ، ايران ، السبطين، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٤م.
- الجرجانيّ، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمد محمود شاكر، مصر، القاهرة، مكتبة الخانجي،١٩٧٩م.
- حسن، عباس ، نظرات في اللغة والنّحو،العراق، بغداد ،مكتبة بيادر، ٢٠١٣م.
- الخليل ، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت ١٧٠هـ)، كتاب العين، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائيّ، دار ومكتبة الهلال، د.ت .
- د. الدجيليّ ، حسن عبد الهادي، العراق، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامّة،٢٠٠٥م.
- الرازيّ، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التميميّ، فخر الدين الرازيّ(ت٦٠٦هـ)، المحصول في أصول الفقه، لبنان، بيروت، دار الكتب العلميّة، ٢٠٠٥م.
- الرازيّ، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التميميّ، فخر الدين الرازيّ(ت٦٠٦هـ)، المحصول في أصول الفقه، لبنان، بيروت، دار الكتب العلميّة، ٢٠٠٥م.
- الرازيّ القزوينيّ،، أحمد بن فارس الرازيّ القزوينيّ (ت ٣٩٥هـ) ، الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، تحقيق . أحمد صقر، مصر، القاهرة، مطبعة الخانجي ، ١٤٢٢هـ.
- الرماني ،علي بن عيسى (ت ٣٨٤هـ) ،رسالة الحدود ،تحقيق :إبراهيم السامرائي،عمان : دار الفكر
- د.السامرائيّ، فاضل صالح، معاني النحو، العراق، بغداد، ١٩٩٠م.
- السعران، محمود ، اللغة والمجتمع رأي ومنهج، مصر، دار المعارف، الطبعة الثانية، ١٩٦٣م.
- د.الشرتح، عصام، ظاهر اسلوبية في شعر بدوي جبل، سورية، دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٥م.
- الصدوق القميّ، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القميّ (ت٣٨١هـ) ، علل الشرائع ، مؤسسة أم أبيها ، لبنان،بيروت ، ٢٠٠٢م.
- الصفار، أبو جعفر محمد بن الحسن بن فروخ (ت٢٩٠هـ)،صححه وعلّق عليه ، دار التقى، لبنان، بيروت ، ٢٠٠٨م.
- د. الطائي، زيد، دراسات لغويّة، ، العراق، البصرة، مطبعة البصائر ،٢٠١١م.
- الطبرسيّ، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسيّ(ت٥٤٨هـ) ، مجمع البيان في تفسير القرآن،لبنان ، بيروت، مؤسسة الأعلميّ، ٢٠٠٨م.
- الطبرسيّ،حسين النوريّ (ت١٣٢٠هـ)،مستدرك الوسائل، ومستنبط المسائل،تحقيق : مؤسسة آل البيت عليهم السلام، إيران،قم، ١٤١٨هـ.
- عابدين، محمود ولد عابدين، الشعر المعاصر في موريتانيا دراسة اسلوبيّة، رسالة ماجستير، جامعة الموصل، كليّة الآداب،٢٠٠٠م.
- عبده عبد العزيز قلقيلة،البلاغة الاصطلاحيّة، مصر، القاهرة، دار الفكر العربيّ، الطبعة الثالثة،١٩٩٢م.
- محمد، عشتار داود، شعر محمود حسن اسماعيل، دراسة اسلوبيّة، رسالة ماجستير، جامعة الموصل، كليّة التربية، ٢٠٠١م.

- علي النمازي الشاهوردي (ت١٤٠٥هـ)، مستدرك سفينة البحار، ايران ،قم ، مطبعة ستارة ، ١٤١١هـ.
- هلال، أحمد عبد الغفار هلال، العربيّة ، سماتها وخصائصها، مؤسسة لغة العرب ، القاهرة – مصر ، ٢٠٠٧م .
- الكلينيّ الرازيّ، أبو جعفر محمد بن يعقوب بن اسحاق الكليني(ت٣٢٨هـ)، الكافي ،مؤسسة المدرسين ، ايران،قم ، ١٣٩٩هـ.
- الكراجكيّ، أبو الفتح محمد بن علي (ت٤٤٩هـ) ،معدن الجواهر، ورياضة الخواطر، تحقيق: حسين الموسوي البروجرديّ، قم، مكتبة العلامة المجلسيّ، ١٩٨٨هـ.
- كوهن، جان كوهن ترجمة: محمد الولي، ومحمد العمري، المغرب، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م .
- المطلبيّ، ملك يوسف، في التركيب اللغويّ للشعر العراقيّ المعاصر – دراسة لغويّة في شعر السياب، ونازك البياتي، العراق، بغداد، ١٩٩٠م.
- د. محمود حسني: أبحاث في اللغة والنحو، الأردن، عمان ، دار اليمامة، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م.
- المفضل، المفضل بن عمر الجعفي الكوفيّ (ت١٤٨هـ)، توحيد المفضل، كلام الإمام الصادق(عليه السلام)، ايران. قم، رياحين ، ١٤٣١هـ .